ظاهرة اللحن جهود العلماء القدامى والمحدثين في التصدي لها

Le phénomène de la mélodie, les efforts des chercheurs anciens et modernes pour y remédier

الدكتور: بوفادينة مصطفى*

جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر(الجزائر)، boufadinam@yahoo.fr

تاريخ الارسال 2022-11-03 تاريخ القبول 2023-02-14 تاريخ النشر2023-12-31

الملخص:

بعد اتساع رقعة الإسلام ودخول الناس شرقا وغربا في دين الله أفواجا ، أحدث هذا تداخلا بين الثقافات فشكل بدوره عجمة في اللسان العربي لم يكن يعرف بها أبنائها سابقا ،لقد أطلقوا على هذه الظاهرة مسمى اللحن ،وتبقى اشكاليته أنه حادث في اللسان :أي اللغة واللغة أساس الفكر ،فإن وقع الزيغ فيها فلاشك أن الحياة الفكرية تتأثر، وتتأثر تبعا لها الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى الاقتصادية، وهذا الذي نشهده واقعا حيا ملموسا في حياتنا فأين العرب بوصفهم أمة داخل نسيج تكتل الأمم الأخرى؟ وما موقع اللغة العربية بين باقي اللغات المؤثرة في عالمنا اليوم؟ فظاهرة اللحن شكلت إشكالية استدعت استنفار المشتغلين في حقل اللغة القدماء منهم والمحدثين للتصدي لها عدتهم في ذلك تظافر الجهود، والإخلاص في العمل لأن اللغة العربية ليست مجرد لسان فقط بل هي حاملة لأقدس مقدسات الأمة إنه القرءان الكريم.

الكلمات المفتاحية : اللحن – الخطأ – الصواب – المعاني – المباني.

Summary :

After the expansion of the area of Islam and the entry of people to the east and west into the religion of God, this caused an overlap between cultures, which in turn formed a foreign language in the Arabic tongue that its children were not known by previously. Thought, if deviation occurred in it, there is no doubt that intellectual life is affected, and social, cultural and even economic life is affected accordingly, and this is what we are witnessing as a living and tangible reality in our lives, so where are the Arabs as a nation within the fabric of the bloc of other nations? What is the position of the Arabic language among the rest of the languages affecting our world today?

The phenomenon of melody constituted a problem that called for the mobilization of those working in the field of language, both ancient and modern, to address it. Their promise in this is to combine efforts and sincerity in work because the Arabic language is not just a tongue, but rather it is the carrier of the most sacred sanctities of the nation, it is the Holy Qur'an.

* المؤلف المرسل **بوفادينة مصطفى**

توطئة:

لم يداخل العرب الزلل والخطأ في لسانهم إلا بعد اتساع رقعة الإسلام ودخول الناس شرقا وغربا في دين الله أفواجا ،هذا أحدث تداخلا بين الثقافات فشكل بدوره عجمة في العربية لم يعرف بها أبنائها سابقا ،لقد أطلقوا على هذه الظاهرة مسمى اللحن ،وتبقى اشكاليته أنه حادث في اللسان ؛أي اللغة واللغة أساس الفكر ،فإن وقع الزيغ فيها فلاشك أن الحياة الفكرية تتأثر، وتتأثر تبعا لها الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى الاقتصادية، وهذا الذي نشهده واقعا حيا ملموسا في حياتنا أين العرب بوصفهم أمة داخل نسيج تكتل الأمم الأخرى؟ وما موقع اللغة العربية بين باقي اللغات المؤثرة في عالمنا اليوم؟

يظهر بجلاء تفوق الأمم الناطقة باللغة الإنجليزية وهذا التفوق نشهده على جميع الأصعدة الثقافية والاجتماعية والابتكارات العلمية وحتى البحوث الاكاديمية المنجزة باللغة الإنجليزية الوحيدة المعترف بها والمحتفى بها على الصعيد العلمي.

لهذا نستطيع التأكيد أن أي أمة تقوى بلغتها وتضعف بضعفها. وتبقى التساؤلات الأكثر إلحاحا علينا حول ظاهرة اللحن متمثلة في : كيف تشكلت هذه الظاهرة في أمتنا العربية أمة الفصاحة والقرآن؟

كيف نظر إليها العلماء القدماء والمحدثين ،وكيف تصدوا لها؟

هي بعض من الأسئلة التي نحاول مدارستها إظهارا لمسببات ظاهرة اللحن وجهود المشتغلين في حقل اللغة للتصدي لها ومعالجتها.

بدءا بالأقدمين ورؤيتهم لها فمن الأمور التي استقر عليها الرأي بين جمهور العلماء القدامى، أنّ القرآن الكريم يحتج به في إرساء قواعد اللغة ولا خلاف بين جمهور العلماء في هذا.

أما من ناحية المروي من الشعر العربي، فقد أجمعوا أيضا على الاحتجاج بالشعر الجاهلي، كشعر طرفة وامرئ القيس وأمثالهم، وكذلك أجمعوا على الاحتجاج بشعر المخضرمين ، وهم الذين عاشوا في العصر الجاهلي ،وصدر الإسلام ونظموا شعرا في المرحلتين كحسان بن ثابت ،واحتجوا- أيضا- بشعر الإسلاميين حتى منتصف القرن الثاني الهجري ، أمثال جرير والفرزدق والأخطل؛ وإن كان بعض المتشددين من علماء العربية كأبي عمرو بن العلاء كان يرفض الاستشهاد بالشعر الإسلامي خوفا من شيوع "اللحن" وحفاظا على فصاحة اللغة، فقد روي عنه أنه كان يقول : " لقد حسن هذا المولد – يقصد بهذا شعر الفرزدق وجرير- حتى كنت آمر صبياننا بروايته"[1]

ويقول عنه تلميذه الأصمعي : "لقد لازمته عشر حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي قط."

وهذا الاحتراز الطاغي على ذهنية أبي عمرو بن العلاء وأمثاله يعكس خوفهم من ظاهرة اللحن ، فأدى ذلك إلى أخذ اللغة الفصحى عن قيس وتميم وأسد.

وكان هؤلاء هم الذين أُخِذَ عنهم أكثرُ ماُ أُخذ ومعظمَه وعليهم أتكل في الاعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم وبالجملة، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم.

وما من شك أنّ صيانة كتاب الله الكريم من الأخطاء المتعلقة بالنطق أو الفهم وحفظ اللغة العربية من الألفاظ التي لا تخضع لموازين ومقاييس اللغة، وأنها أصبحت جزءا من الدين لأنها لغة القرآن ، فهم بذلك يرون مقاومة "اللحن" والحفاظ على نقاوتها تكليفا شرعيا، ذلك أنها السبيل إلى العلم بالدين عبادة وتشريعا، وكان رائدهم فيما يعتقدون الأمر الصادر من الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته بنصح من لحن في مجلسه وارجاعه إلى طريق الحق والصواب إذ قال عليه السلام: "أرشدوا أخاكم فقد ضل".[2]

فغيرتهم على اللغة العربية، وحرصهم عليها قوية البناء سليمة الاعراب دفعهم إلى اتباع البادية ومشافهة أعرابها وأخذها من منابعها الصافية، فقعدت القواعد، وصُححت المفردات التي دخلها اللحن والتحريف .

ويشتمل الموضوع على:

1- معنى اللحن في الكلام العربي وتطوره.

1-1- بداية اللحن ونشأته .

1-2- موقف العلماء من ظاهرة اللحن.

2- من نماذج الخطأ أو اللحن:

أ- في المعاني.

ب- في بنية الكلمات.

ج- في التراكيب والاعراب.

1- معنى اللحن في الكلام العربي وتطوره

لقد بحث كثير من الدارسين في كلمة "اللحن" وتعدد معانيها وتطورها ويذكر في هذا الصدد أن من معانيها :

أ- الفطنة والذكاء : استنادا إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لعلّ أَحَدَكُم أنْ يكونَ ألحنَ بحجته من بعض"[3]

ب- التظرف في الحديث : بخلط بالكلام الأجنبي أو الكلام المعتمد فيه الخطأ:

كما روى ابن دريد أنه "قيل لمعاوية رضي الله عنه:أن عبد الله ابن زياد يلحن في كلامه، فقال :أوليس بظريف ! ابن أخي يتكلم بالفارسية " فظن معاوية أن الكلام بالفارسية لحن، ومن ذلك البيت المشهور للفزاري:

منطق صائب وتلحن أحيانا * وخير الحديث ما كان لحنا ([4])

ج- التورية : باستخدام معنى قريب وإرادة معنى بعيد وعلى ذلك ألف ابن دريد كتابه "الملاحن" قاصدا به استخدام الكلمات و إرادة معان لا تخطر لأول وهلة على الذهن عند سماع الكلمة.

وفي مجال المعنى أيضا ، أطلقت على الخطأ في المعاني وذلك باستعمال الكلمة أو التركيب على غير وجهه الذي قرره له العلماء وقد ألف المفضل بن سلمة كتابه "الفاخر فيما تلحن فيه العامة"

عن هذا النوع من الخطأ في المعاني وجاء في مقدمته قوله "هذا كتاب معاني ما يجري على ألسن العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب، وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك ،فبيناه من وجوهه على اختلاف العلماء في تفسيره([5]).

إذن فكلمة "اللحن" استعملت بمعان متعددة في عصور متفاوتة خاضعة في ذلك لتطور الدلالة كما هو الشأن للكلمات في كل اللغات والذي يعين أحد هذه المعاني النص الذي وردت فيه.

واللحن بمفهومه المتعارف عليه والذي أقصده هو "خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصحة في بنية الكلام أو تركيبه أو اعرابه ، بفعل الاستعمال الذي يشيع أولا بين العامة من الناس ويتسرب بعد ذلك إلى لغة خاصة ،واللحن بهذه الصفة أمر طارئ على اللغة الفصحى إذ النطق العربي الفصيح قام على الصحة والسلامة معتمدا على الفطرة ؛ فهذا هو الأصل وما حاد عنه – الأصل الفطري المتوارث – فهو خطأ ويوصف حينئذ بأنه "لحن" وغالبا ما يضاف اللحن إلى العوام؛ أي أنه أكثر حدوثا عند العامة حيث يندر التعلم ويقل ولا يتفطن للخطأ في اللسان وتداخل العجمة فيه.

لقد تعددت الرؤية لقضية اللحن وكثر حولها الأخذ والرد وان اتفقوا أنها دخيلة على اللسان العر بي بسبب اتساع رقعة الدولة الإسلامية وتداخل أجناس غير عربية واختلاطها مع العنصر العربي إلا أن اختلافهم كان هل هو في خروج الأصوات أم في الألفاظ أم في التركيب أم في المعاني، لذلك كله جاءت كلمة اللحن في المعاجم بتعاريف شتى منها كما يراه صاحب القاموس المحيط:"أن تكون من الأصوات المصوغة الموضوعة" ([6]).

أما صاحب المعجم الوسيط فيرى أنه متعلق باللسان وواقع في مجال التركيب؛أي تركيب الكلام بما يخالف قواعد اللغة العربية حيث أنه الخطأ في الاعراب ومخالفة وجه الصواب في النحو([7]).

واللحن، منه القبيح والمستملح ، وقد فصل ذلك كله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بقوله: "...اعلم، أن أقبح اللحن ،لحن أصاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورة* والتفخيم، وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة وبقرب مجامع الأسواق ولأهل المدينة ألسن ذلقة ،وألفاظ حسنة وعبارة جيدة واللحن في عوامهم فاش ،وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالبا ...و ربما استملح الرجل اللحن من الجواري الظراف ،ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد ؛وكما يستملحون اللثغاء ، إذا كانت حديثة السن ومقدودة مجدولة ،فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح"([8]).

وقال عبد الملك بن مروان : "اللحن هجنة على الشريف ،والعجب آفة الرأي([9])، أو قال "الاعراب جمال للوضيع واللحن هجنة على الشريف"([10]) وثبت قوله في اللحن كذلك :"اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه "

أما ابن دريد فيرى اللحن في الالتباس والغموض في الفهم المقصود فيقول : "فأما اللحن في العربية ،لأنك إذا قلت : ضرب عبد الله زيد – لم يدر أيهما الضارب ولا المضروب، فكأنك قد عدلت عن وجهه ،فإذا أعربت عن معناك فهم عنك"

وأورد ابن عبد ربه في عقده ،أبياتا لشاعر أدرك عليه رجل من المتفصحين لحنا في شعره وكان من المتتبعين له يدعى حفص وبه اختلاف في عينيه وتشويه في وجهه ،فقال فيه:([11])

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل وأنف كمثل الطود عما تتبع

تتبع لحنا من كلام مرتش وخلقك مبني من اللحن أجمع

فعينك إقواء وأنفك مكفأ ووجهك إيطاء فما فيك مرقع([12])

وقال ابن القيم الجوزي في تقويم اللسان :

"واعلم أن غلط العامة يتنوع ،فتارة يمدون المقصور ،وتارة يقصرون الممدود، و تارة يشددون المخفف وتارة يخففون المشدد وتارة يزيدون في الكلمة ،وتارة ينقصون منها وتارة يضعونها في غير مواضعها ،إلى غير ذلك من الأقسام ."([13])

فيستنبط ما يوصف الكلام من أجله باللحن والخطأ ،فابن دريد رأى الإخلال بالإعراب في مثل ضرب عبد الله زيد لحنا في العربية ويفسره بالعدول عن الوجه فيه من نصب – زيد- أنه يشمل أيضا ما عدده ابن الجوزي وهذا في معظمه يتعلق ببنية الكلمات ،وقد سماه غلط العامة.

وفي قوله: "يضعون الكلمات في غير مواضعها " يشمل تأليف الكلام العربي ورصف الكلمات في التراكيب اللغوية ،وما يشمل معاني الكلمات في استخدامها على غير ما قرره لها علماء اللغة وهذا الأخير أطلق عليه العلماء أيضا :لحن وخطأ ،وإن لم يكن من الكثرة والشهرة ما للإخلال بالإعراب أو بنية الكلمات .

وقبل الولوج إلى أنواع اللحن وجب علينا إيضاح قضية ولوج اللحن إلى اللسان العربي بداياته وكيف استفحل.

1-1- اللحن بداياته واستفحاله

لاشك أن السؤال الأكثر الحاحا هومتى بدأ اللحن في الكلام العربي وكيف استفحل؟

لو صح أن الاهتمام باللغة ودراستها قد تقدم به الزمن إلى العصر الجاهلي لجاءتنا كتب في اللحن عن هذا العصر كما حدث في القرن الثاني الهجري وما تلاه حين نضجت الدراسة وتنوعت وكان اللحن أحد المظاهر التي اهتمت بهذه الدراسة.

وإن كان الدكتور عمر فروخ يقول "فبدأ فيها (لغة مضر) اللحن – مستشهدا بقول أبي عمرو بن العلاء –" فحلان من الشعراء كانا يقويان (يخطئان في حركة الروي- الحرف الذي تبنى عليه القافية) النابغة الذبياني وبشر بن أبي خازم . " ومثل هذا معروف عند امرئ القيس وعند غيره أيضا. فإذا كان هؤلاء يلحنون فما بالك بسائر أهل الجاهلية ؟ "([14]).

ثم يردف قائلا أه على كل حال ،فإن كلمة "اللحن" قد ترددت بين العرب مع ظهور الإسلام ،فقد نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأنى لي اللحن"

ونقل عن الصديق قوله : "لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن".

وكذلك قصة الكتاب المشهور الذي بعث به من العراق أبو موسى الأشعري إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،وجاء فيه (من أبو موسى الأشعري) وما رد به عليه عمر من قوله : "اضرب كتابك سوطا واحدا وأجز عطاءه سنة" [15]

فإن هذه الروايات المتناثرة – إن صحت- تدل على معرفة اللحن في ذلك العصر وفيما قبل ذلك العصر وفيما قبل ذلك العصر الإسلامي المبكر إذ أن استخدام اللفظة في ذلك الوقت المبكر ،وفهم المقصود منها حينذاك قد سبقته ما يسوغ هذا الاستخدام وذلك الفهم وفي ذلك دلالة غير مباشرة على حدوث ذلك في الجاهلية وإن لم ينقل ذلك وتتناقل مظاهره.

وحين تأخر الزمن في عهد الأمويين في القرن الأول الهجري – أصبح اللحن قضية ذات خطر في استعمال اللغة ،اذ اتسعت الدولة الإسلامية وكثرت دواعي الاختلاط بالأجانب وجاءت عن ذلك رويات تصور مواقف حدث فيها اللحن بين الخاصة وفي حضرة الخلفاء وهي لهذا السبب استحقت الرواية والتناقل وما كان يحدث بين عامة الناس ،فبقي مجهولا وأكبر الدلالة على كثرته وضخامته وانتشاره أنه كان سببا في بداية النحو العربي.

و روي عن الأصمعي قوله "أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل: الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية والحجاج أفصحهم "([16]).

فدلت هذه الشهادة على أن الخلو من اللحن يمثل الجانب الشريف الذي يستحق به صاحبه الفخر والثناء كما هو واضح من أسلوب الاعجاب الذي يقرر به الأصمعي هذه الحقيقة على الحجاج وغيره.

ثم أصبح ما كان إحساسا بالخطر خطرا حقيقيا ملموسا وترتب على ذلك في القرن الثاني الهجري نشاط علمي متنوع ، رحل العلماء إلى البادية لرواية اللغة وانصرفوا عن الحضر بعد أن شاع فيه اللحن.

وكتاب الكسائي – ما تلحن فيه العامة- دليل على تلك التنقية للغة العربية.

ودخل الفراء يوما على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه ،فقال جعفر بن يحي: "يا أمير المؤمنين ،إنه قد لحن ،فقال الرشيد للفراء أتلحن يا يحي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن طباع أهل البدو الاعراب وطباع أهل الحضر اللحن فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن وإذا رجعت إلى الطبع لحنت فاستحسن الرشيد كلامه"([17]).

وهذا يدل على العلماء أنفسهم كانوا يلحنون في حياتهم العادية ولم يروا ذلك عيبا يغض من شأنهم ونال هذ الاعتراف استحسان الرشيد لأنه الحقيقة ،ويمثل الرشيد أواخر القرن الثاني الهجري ،أما القرن الثالث فأقل حظا من الفصاحة ونوادر الجاحظ في ذلك كثيرة إذ رأى أن اللحن قد امتد إلى الأعراب والعلماء المتقعرين في نطق اللغة([18]).

أما في القرن الرابع فقد وصل الأمر إلى مداه ،فالآمدي من علماء هذا القرن يقول "والمتأخرون لا يكادون يسلمون من اللحن وهذا في أشعارهم كثيرا جدا "([19]).

ويقول أبو جعفر النحاس :"وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعديا حتى إنهم يحتجون بما يزعمون أن القاسم ابن مخيمرة قال: النحو أوله شغل وآخره بغي"([20]).

ومن قبل كان تعلم العربية من الأمور التي يتواصى بها الناس ويحصن عليها الخلفاء والحكام وهكذا انقلب الأمر فأصبح تعلم العربية عن طريق الصناعة النحوية موضع سخرية الناس تماما كما نعيش اليوم في عصرنا الحاضر.

2-1 موقف العلماء القدامى من ظاهرة اللحن:

لقد نظر علماء اللغة إلى اللحن من زاوية "الخطأ" فقاوموه بعنف في الفترة التي كانت اللغة موردا أساسيا للدراسة والصلة قريبة بين المادة النقية حين ترد من البادية وبين التقنية الفصحى المستخدمة في المدن قياسا عليها.

واعتمد اللاحقون على جهود السابقين فكانوا ينقلون غالبا ما أورده من سبقوهم في كتبهم وعلى سبيل المثال اعتمد ابن قتيبة في "تقويم اللسان" على ابن سكيت في "اصلاح المنطق" ،وجاء في مقدمة كتاب ابن الجوزي "تقويم اللسان " أنه جمع فيه ما رآه مبددا في كتب من سبقوه([21])، ثم نقل السيوطي كتاب ابن الجوزي برمته وعنونه بـ "غلطات العوام" .

وفي مقدمة "لحن العوام" للزبيدي قوله " فهذا ما أفسدته العامة عندنا فأحالوا لفظه أو وضعوه غير موضعه وتابعهم على ذلك كثرة من الخاصة حتى ضمنتهم الشعراء أشعارهم وتلاقوا به في محافلهم فرأيت أن أنبه عليه وأبين وجه الصواب فيه "([22]).

3-1موقف العلماء المحدثين من ظاهرة اللحن

إن مجال اللحن في اللغة خصب طُرحت فيه الأبحاث المتعددة و تلاقحت فيه الآراء و هذا لخطره على اللسان الفردي وعلى اللسان الجمعي على حد سواء.

و إن الخطأ في الكلام ليعيب المرء و لقد عده القدماء من العرب عي ؛أي ضعف العقل ، وعليه ظهرت التصانيف والتآليف في هذا الباب ، ربما قد أشرنا لبعضها سابقا ، و من أهمها كتاب " لحن العامة " لأبي بكر الزبيدي ، و درة الغواص في أوهام الخواص للحريري ، كما ظهرت تصانيف أخرى كان هم أصحابها إقامة اللسان و تصحيح غلطه مثل : تقويم اللسان لابن الجوزي ، وتثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي الصقلي ، و اصلاح المنطق لابن السكيت ، و التآليف في هذا الباب كثيرة .

و إذا رجعنا إلى المحدثين المشتغلين على قضية الخطأ و الصواب في اللغة ، ومعرفة الاعراب ، و تصويب القول بفن قل ولا تقل فنجد منهم من قام بتحقيق كتب الأقدمين أو درسها ، مثل ما فعل الدكتور رمضان عبد التواب أو الدكتور عبد العزيز مطر ، من تحقيق في هذا المجال .

ومن بين أهم الأعمال في هذا الباب تظهر دراسة أحمد محمد قدور مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر الهجري و هي دراسة دلالية إحصائية ببليوغرافية لبعض ما أؤلف من كتب في مجال اللحن

ومن أهم الدراسات الحديثة أيضا تلك الدراسات التي اتجهت للاهتمام بتصحيح ألفاظ عامية مثل : قاموس ردّ العامي إلى الفصيح للشيخ أحمد رضا ، ومنها أيضا المعاجم التي اشتغل أصحابها على إظهار الأخطاء الشائعة وتصحيحها : مثل معجم الأخطاء الشائعة لمحمد العدناني .

و لقد وجدنا أن جلّ المحدثين من اللغويين دونوا ملاحظاتهم على الأساس الذي تأسست عليه القواعد و قام عليه نظام اللغة من حيث التحديد المكاني والزماني ، فاللغويون من وجهة نظرهم لم يقصروا تقعيدهم لقواعد اللغة على مصدر واحد هو لغتها النموذجية الأدبية كما كان الواجب ، بل أقحموا معها اللهجات العربية القديمة بصفاتها وخصائصها المتباينة (23).

فالحقيقة التي يجب أن نواجهها أن الفصاحة لا ترتبط بمكان أو زمان أو عرق و أن الملكة اللغوية الفصيحة التي يكون فيها الانسان متمثلا للغة تتولد لدى المتكلم بالدربة ، ولذلك نجد أن بعض المحدثين حصروا وجوب اطلاق مقاس الاستشهاد اللغوي اطلاقا موضوعيا لا يتقيد بالزمن بل بالمادة اللغوية التي اتحفتها أقلام عُرف عنها حرصا على اللغة والتنوع في استعمالها والتزود عن اسفاف العاميات و بذلك تجدد اللغة شبابها "(24).

و من اللحن الذي وقع في اللغة في عصرنا نجد الكثير من المصطلحات كقولنا: اختصاص أو مختص

و لكن مع ذلك تتم تصحيح الكلمة (أخصائي) عن طريق التأويل باعتبارها صيغة نسب إلى الجمع " أخصّاء" الذي مفرده " خصيص " .

و كثيرة هي الأخطاء الواقعة في الدلالة و انصرافها إلى غير ما وضعت له كقول " تنفس الصعداء " و هي في أصل وضعها تَنَفَس تَنفُّس الانسان في الصعود ؛ أي لقي شدة و عسرا والصعداء مصدر بمعنى الصعود . والعامة عندنا اليوم يستعملونها بعكس هذه الدلالة ،و يريدون بها دلالة الراحة واليسر .

و هناك كلمة أخرى هي "الشنب " والتي كانت تعني في القديم جمال الثغر وصفاء الأسنان ، أما في زماننا فانصرفت إلى معنى الشارب (25).

و مما نقف عليه أيضا عند المحدثين ماجاء في باب النحت وعلى الرغم من القيمة اللغوية له فإنهم يؤكدون على ضرورة تحاشيه – ما أمكن ذلك– و ذلك ما أقره مجمع اللغة المصري السابق ومن قرار المجمع العلمي العراقي ، فقد صُرح " عدم جواز النحت إلا عند عدم العثور على لفظ عربي قديم واستنفاد وسائل تنمية اللغة من اشتقاق و مجاز و استعارة لغوية و ترجمة ، على أن تلجئ إليه ضرورة قصوى ، و أن يراعى في اللفظ المنحوت الذوق العربي و عدم اللبس.

و إن كنا نجد أن بعضهم دعا إليه من أمثال إبراهيم أنيس حيث يرى أن النحت في بعض الأحيان ضروري يمكن أن يساعدنا على تنمية الألفاظ في اللغة ، و لذا نرى الوقوف منه موقفا معتدلا(26).

بعد كل هذا التطواف في إشكالات اللحن و ما يقوم به من عملية خلخلة الاستعمال اللغوي ، وضعف اللسان تبينا لنا بالفعل أنه مجال يتبارى فيه أهل اللغة منافحين عنها و مظهرين خطره.

لم تكن رؤية المحدثين لإشكالية اللحن رؤية واحدة متوحدة بل تفرقوا في قضيته فرقتين ، احداهما نظرت للحن على أنه مجانب لصحة اللغة و مانع لتطورها و يجب إرساء ضوابط و أسس تمنع اللحن في اللغة .

أما الأخرى فلم يعبأ أصحابها بالبحث عن تلك الضوابط و إنما نظروا إلى هذا اللحن من وجهة أخراه فعدوه أمرا واقعا في اللغة لا يمكن بأي حال انكاره ، و حاولوا تفسيره فكان التطور اللغوي عندهم من أهم أسبابه ، و هو تطور لا يصيب اللغة وحدها ، ولكن يصيب الظواهر الاجتماعية كلها ، واللغة واحدة منها ، و أرجعوا ذلك إلى تفسيرات لغوية ،صوتية و صرفية و دلالية لمظاهر اللحن بناء على هذا التطور .

لكن القول الصحيح أن أصحاب هذا الرأي جانبهم الصواب و إن كان اللحن واقع ، لكن وجب تصحيحه لأن اللغة المشتغل عليها هي لغة القرآن المتعبد بها ، و من ثم وجب الحفاظ عليها من أي انحراف قد يؤدي إلى فهم غير صحيح أو غير دقيق لهذا القرآن (27) و ما يترتب على ذلك من أحكام تخص المسلمين في دينهم و دنياهم .

و عدم الحفاظ على اللغة المشتركة سيزيد الهوة بين المجتمعات العربية ،فالعربية هي أساس الهوية وهي الرابطة بينهم ، ولا يجب أن ينقطع هذا الخيط بأي حال من الأحوال ، و على ذلك وجب علينا التمسك بكل ما من شأنه الحفاظ على لغتنا صحيحة نقية من كل شائبة بلا لحن أو تزييف .

أما في عمل النحاة وتعاملهم مع ظاهرة اللحن في بداياتها وكيف ظهرت وتغلغلت في المجتمع العربي الذي عرف بنقاء اللسان وفصاحة الجنان افترض الدكتور "أنيس" أن الروايات التي جاءت في كتب النحاة وتحمل في طياتها ما سموه باللحن أنها تحتمل الصحة والوضع من النحاة فرتب على صحتها أن الإعراب لم يكن سابقة بين العرب ،وعلى احتمال وضع النحاة لها أن الإعراب نفسه من عمل النحاة وقد اخترعوا روايات اللحن ليؤكدوا قيمة معرفتهم وحدهم بالإعراب([28]).

ويبعد هذا الظن ما نقلته مؤلفات اللحن على مدى العصور وقد قاربت ثلاثين مؤلفا وأنها تقتصر على حركات الاعراب فقط بل شملت الصيغ وتأليف الكلام ومعاني الألفاظ كما سبق عرضه ،فقد اندرج تحت ما أطلق عليه "اللحن" أمور ثلاثة أقلها شهرة واهتماما الخطأ في المعنى باستعمال اللفظ في غير ما هو له من المعنى ،وأعظمها شهرة وكثرة واهتماما الخطأ في بنية الألفاظ أو الاعراب ، ومن أمثلة ذلك على سبيل تقديم المناهج لا الاستقصاء نذكر ما يلي.

2- من نماذج الخطأ أو اللحن:

أ- في المعاني:

قولهم : (خرجنا نتنزه) ،إذا خرجوا إلى البساتين وإنما التنزه التباعد عن المياه والأرياف ،وزيد يتنزه عن الأقذار والأوساخ ، وتنزه عن الشيء بعد عنه وتصون ،ونزهه عن الشيء أبعده عنه ، ونزه الدواب نزها: أبعدها عن الماء ،ونزه نزاهة ونزاهية : بعد عن الريف وفساد الهواء ؛ ونزه نفسه عن الأقذار([29]).

فمن ذا الذي يفهم من (خرجنا نتنزه) التباعد عن المياه والأرياف؟

وبعضهم يستعمل كلمة "الطرب" للفرح دون الجزع ،وليس كذلك ،وإنما الطوب خفة تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع ،و طرب منه أوله ، خف واهتز من فرح وسرور ، أو من حزن وغم ، والطرب:

خفة وهزة تثير النفس لفرح أو حزن أو ارتياح ([30]).

والطرب خفة تلحقك تسرك أو تحزنك ،وتخصيصه بالفرح وهَمٌ([31]).

والملاحظ على هذا النوع من الخطأ في المعنى ،أن الحكم عليها باللحن كان من زاوية الاستعمال ، ولم يؤخذ في الاعتبار بالنسبة لها تطور الدلالة ،التي قد تتغير من جيل لجيل ،فالكلمات ليست أحجارا جامدة ،ولكنها وسيلة اجتماعية يطرأ عليها التغيير في معانيها والتطور في دلالتها ،ومن المفيد أن نلاحظ أن مثل هذه الكلمات التي حكم عليها بالخطأ ،ظلت منذ القديم سائدة حتى الوقت الحاضر ؛ و أنه لا يخطر ببال أحد استعمالها بالعرف الذي رأى العلماء أنه هو العرف الصحيح؛ فمن الواضح أن تفكير علماء اللغة على هذا النحو ،تفكير التزم التقعيد ،ولم يأخذ في اعتباره المرونة والتطور ،فبقيت دراستهم في واد، والاستعمال في واد آخر ؛ وأن جهودهم كلها أفادت من حيث الدراسة في ذاتها ،لكنها لم تتفق مع طبيعة اللغة ،لذلك لم تفد كثيرا في تعديل ما أطلق عليه "اللحن" في عصرهم أو بعد عصرهم.

ب– من نماذج الخطأ في بنية الكلمات :

قال مسلمة بن محارب : كان عند عمر بن عبد العزيز رجلان ،فجعلا يلحنان ،فقال الحاجب :قوما فقد "أَوْذيتُمَا أمير المؤمنين ! قال عمر: أنت آذى لي منهما ([32]).

فكان عليه أن يقول آذيتما أمير المؤمنين، وهذا دال على عدم إدراك الحاجب لقوانين الاعلال والابدال ،اللذين يدخلان تحت مباحث علم الصرف.

وكثيرا ما تعلق على أبواب المحلات التجارية عبارة "مغلوق" والأصح مغلق ،فيقال أغلقت الباب فهو مغلق .ويقولون جمع بيضاء وصفراء وسوداء بيضاوات و صفروات و سودوات وهو لحن فاحش والأجدر والأصح أن تجمع بيض وصفر وسود كما جاء في القرآن الكريم :

"ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود"([33]).

فهذه النماذج تتعلق ببنية الكلمة العربية ،وصياغة المشتقات على غير الطريقة المحددة لها في الشكل الحروف وكميتها مثل مغلق ومغلوق ومثله مقفل ومقفول ، أو في صيغة الجمع للمفرد كما في بيضوات وبيض.

وعلماء النحو والتصريف وضعوا مبادئ محددة ، وفي ضوء هذه المبادئ نظروا إلى طريقة استعمال اللغة على مدى العصور ،فكل ما وجدوه مخالفا لها حكموا عليه باللحن.

وهذا النوع من اللحن قد حظى بعناية العلماء عناية فائقة مما لم ينل مثله المظهران الآخران من مظاهر اللحن اللذان يتعلقان بالمعاني أو التراكيب والإعراب ،ولعل ذلك يرجع إلى الاعتقاد بأن هذا المظهر من اللحن أشد خطورة على اللغة من المظهرين الآخرين لما يترتب عليه من تشويه اللغة وطمس المعاني واضطرابها.

ج–من نماذج اللحن في التراكيب والإعراب :

إن أول ما يبادر إلى الذهن عند قراءة هذا العنوان هو تسلل إلى طريقة تأليف الكلام واستخدام الأدوات النحوية والإعراب ،التي تتعلق بالتركيب اللغوي ؛ولعله هو الباعث في تأسيس النحو وقد أشار إلى ذلك أبو الفرج الأصفهاني عن سرد أخبار أبي الأسود الدؤلي فقال: "أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي ،جاء إلى زياد بالبصرة فقال له: أصلح الله الأمير ،إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم

وتغيرت ألسنتهم ، أفتأذن لي أن أضع لهم علما يقيمون به كلامهم؟ قال: لا. قال: ثم جاء زيادا رجل فقال: مات أبانا وخلف بنون ،فقال زياد: مات أبانا وخلف بنون ! ردوا إلي أبا الأسود الدؤلي ،فرد إليه ،فقال: ضع للناس ما نهيتك عنه ،فوضع لهم النحو"([34]).

وإن رفع المفعول ونصب الفاعل مما يشمئز منه السمع العربي ،وما يدرج تحت هذا العنوان كذلك قول بعضهم شكرتك ونصحتك ،والعرب تقول نصحت لك ، وشكرت لك ،وقد نصح لفلان وشكر له .

قال تعالى : "واشكروا لي ولا تكفرون "([35]).

وقال أيضا : "و لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم"([36]).

على هذا النحو استقرت عليه القواعد واستقر عليه التأليف بين علماء اللغة وما جاء مخالفا كقولهم (شكرتك ونصحتك) يدخل في دائرة "اللحن والخطأ".

ويعود إلى كيفية استخدام حروف الجر، وقد يعود إلى تعدية اللازم وجعله يتحمل مالا يطيق فيقولون مثلا:

(أدخل باللص السجن) والصواب أن يقولوا (أدخل اللص السجن) لأن الفعل تارة يعدى بهمزة النقل كقولك (خرج واخرجته) .

وتارة بالباء كقولك (خرج وخرجت به([37]).

فأما الجمع بينهما فممتنع عند جمهور العلماء.

وقد يعود اللحن كذلك في إدخال الاعراب على الاعراب ،قال الأخفش : "أخبرني المبرد قال :

أنشدني سليمان بن عبد الله بن طاهر لنفسه وقد مضت لي عشرونان ثنتان. فقلت: أيها الأمير هذا لحن ،لأن إعرابا لا يدخل على اعراب "[38]

وبناء على هذه الروايات ،أن اللحن كان شائعا إلى حد الكثرة حتى تنوع.

الخاتمة:

من خلال تتبعنا لظاهرة اللحن والتي رأيناها وفق رؤية تاريخية كرونولوجية نابعة من اختلاط أجناس متعددة مع العرب مما أوقع اللسان العربي في الزلل والخطأ ، والمتعارف عليه أن أمة العرب لا تخطئ في لغتها – قديما في العصر الجاهلي– بسبب الفطرة والسليقة فكانوا فصحاء وأهل بيان ولذلك تحداهم الله في قرءانه الكريم على أن يأتوا بمثله أو حتى بسورة من مثله ،واللحن كقضية شغلت علمائنا قديما وحديثا فألفوا فيها التآليف والتصانيف حتى أضحت لا تحصى، وسعيهم في ذلك خدمة للعربية لغة القرآن من أن يدخلها زيف و نقصان .

ولقد رأينا أن اللحن يتعدد بداية من منشأه :اللسان فالأبنية ثم المعاني فالتراكيب والإعراب ،وعليه إن أردنا أن تعود العربية إلى مجدها فيجب علينا محاولة إصلاح ألسنة أبناءها ، فهي عنوان تجذرنا وبقائنا و هي اللغة الباقية بقاء الملة .

ولذلك وجب الحفاظ على هذه اللغة المشتركة لأنها تمثل عامل قوة ووحدة في عصر التكتلات اللغوية والاقتصادية ،وبالمقابل أي انكار أو تهاون في العمل على إرساء قواعد صلبة نعمل من خلالها على جعل لغتنا قوية فعالة مسايرة للتقدم العلمي والحضاري خدمة لنا أولا ثم خدمة للإنسانية ثانيا ،سترتد في البدء نتائجه علينا ؛ حيث ستزيد الهوة بين المجتمعات العربية ويزيد التشرذم والتقزم ،فالعربية هي أساس الهوية وهي الرابطة بينهم ، ولا يجب أن ينقطع هذا الخيط بأي حال من الأحوال ، و على ذلك وجب علينا التمسك بكل ما من شأنه الحفاظ على لغتنا صحيحة نقية من كل شائبة بلا لحن أو تزييف.

وصدق الشاعر حافظ إبراهيم في قصيدته : اللغةُ العربيةُ تَنعَى حظَّها بين أهلِها في قوله على لسانها :

أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِن فَهَلْ سَاءَلُوا الْغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتِي

واللغة العربية باقية بقاء الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام وبقاء الكتاب المعجز القرءان الكريم، قد تضعف وذلك قد يرجع لضعف أبنائها حينما يتخلون عنها ،ومتى رجعوا وآبوا إليها تعود لها قوتها وعنفوانها.

الهوامش :

[1]- البغدادي ، خزانة الأدب - ج 1 - الصفحة 30 .

[2]- عبد العال سالم مكرم ، القرآن الكريم و أثره في الدراسات النحوية ، دار المعارف ، مصر ، بلا تاريخ ، بلا طبعة ، ص48 .

[3]- متفق عليه ، ورد الحديث في صحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ، دار الحديث ، القاهرة ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ط 1412 هـ ، 1991م رقم الحديث 1713 ، ج3 ص 1377 ، و صحيح البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة تقديم أحمد محمد شاكر ، دار الجبل ، بيروت ، م1 ،ج2 ، ص 52 بلا تاريخ حديث رقم 1713.

[4]- ابن عبد ربه ،العقد الفريد- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1969، ج2، ص 480.

[5]- ابن النديم، الفهرست ، تحقيق وتقديم مصطفى الشويحي ،الدار التونسية للنشر1985، ص 331.

6- الفيروز آبادي، القاموس المحيط،، دار الفكر بيروت لبنان، ج04، ص 677.

- إبراهيم أنيس ومجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، دار الفكر، ج2، ص 117. [7]

* الجهورة:مصدر جهور،رفع الصوت وأعلنه.

[8]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون ،ط4 .ج1، مصر 1975، ص 146.

[9]- ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، ج2، ص 216.

[10]- م ن، ص ص 478 . 479 .

[11] - الشاعر ذكره صاحب البيان والتبيين وهو البردخت ، وحفص هو ابن أبي بردة .الجزء الثاني. ص 214 وأورد العجز الأول : كثيل التعود.

[12]- الثيل : القضيب، العود: الجمل المسن، الاقواء: اختلاف حركة الروي ، الاكفاء : اختلاف حرف الروي، الايطاء:تكرار القافية باللفظ والمعنى

[13]- ينظر: أبي الفرج عبد الرحمان بن الجوزي ،تقويم اللسان،تحقيق عبد العزيز مطر،دار المعارف 1983 ،ط2،ص 56.

- ينظر:عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي ج1، دار العلم للملايين طبعة1983، ص37 [14]

15 - أبو الطيب عبد الواحد بن علي : مراتب النحويين واللغويين ، تحقيق : محمد أبو الفضل و إبراهيم ، مكتبة النهضة ، مصر القاهرة ، بلا طبعة ، 1955 ، 23.ص

[16]- م.ن،ص.38.

[17]- ينظر:عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي.ص.39 .

[18]- ينظر: الجاحظ ،البيان والتبيين ،ج1 ،ص 146.

[19]- الآمدي – الموازنة،دار المعارف ط4، ج1 ، ص 416.

[20]- ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،ج1 ،ص 171.

[21]- ينظر: أبي الفرج عبد الرحمان بن الجوزي ،تقويم اللسان،المقدمة.

[22]-ينظر: أبو بكر الزبيدي، لحن العوام ،تحقيق رمضان عبد التواب ،مكتبة الخانجي ط2، 2000، ص 61.

[23]- ينظر: إبراهيم أنيس ، من أسرار اللغة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط1 ، 1966 ، ص 38 .

[24]- ينظر : عبد الصبور شاهين : دراسات لغوية ، ص 73.

[25]- إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط2، 1963 ، ص 126 .

[26]– ينظر : إبراهيم أنيس ، من أسرار اللغة ، ص 75 .

[27]– مستويات التصحيح اللغوي عند القدماء دراسة في كتاب تصحيح التصحيف و تحرير التحريف لصلاح الدين الصفدي (764هـ).

[28]–ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط2 ،1976، ص من المقدمة.

[29]– المعجم الوسيط ،مجموعة من المؤلفين مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ،2004، ط4،،ص 915.

20– م .ن ،ص 552

[31]– ينظر: القاموس المحيط، الجزء الأول .ص 97.

[32]–ينظر: الجاحظ أبو عمرو عثمان بن بحر ،البيان والتبيين،الجزء3 .ص 240.

[33]– فاطر.الآية 27.ورش.

[34]– ينظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني : ج12 ،تحقيق لجنة الأدباء – دار الثقافة– بيروت. الطبعة السادسة 1973، ص 303..

[35]– الآية 151 سورة البقرة. ورش.

[36]– الآية 34.سورة هود.ورش.

[37]– ينظر: السيد يعقوب بكر، نصوص في فقه اللغة، . دار النهضة – بيروت 1970،ج1 ص 365.

[38] – سليمان بن عبد الله بن طاهر، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، المكتبة الشاملة الحديثة ، ص441 .

قائمة المراجع :

1– أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني : ج12 ،تحقيق لجنة الأدباء – دار الثقافة– بيروت. الطبعة السادسة 1973.

2– المعجم الوسيط ،مجموعة من المؤلفين مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ،2004، ط4.

3– إبراهيم أنيس ، من أسرار اللغة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط1 ، 1966 .

4– إبراهيم أنيس ومجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، دار الفكر و مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية،ط4 ،2004.

5– إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط2، 1963.

6– ابن النديم الفهرست ، تحقيق وتقديم مصطفى الشويحي ،الدار التونسية للنشر1985

7– ابن عبد ربه ،العقد الفريد– مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1969، ج2.

8– أبو بكر الزبيدي، لحن العوام ،تحقيق رمضان عبد التواب ،مكتبة الخانجي ط2، 2000.

9– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون ،ط4 .ج1، مصر 1975.

10– أبو الطيب عبد الواحد بن علي : مراتب النحويين واللغويين ، تحقيق : محمد أبو الفضل و إبراهيم ، مكتبة النهضة ،مصر القاهرة ، بلا طبعة ، 1955.

11– أبي الفرج عبد الرحمان بن الجوزي ،تقويم اللسان،تحقيق عبد العزيز مطر،دار المعارف 1983 ،ط2.

12– الآمدي – الموازنة،دار المعارف ط4، ج1.

13– البغدادي ، خزانة الأدب – ج 1 .

14– الجاحظ أبو عمرو عثمان بن بحر ،البيان والتبيين،الجزء3 .

15- السيد يعقوب بكر، نصوص في فقه اللغة، . دار النهضة – بيروت 1970،ج1 .
16- الفيروز آبادي، القاموس المحيط،، دار الفكر بيروت لبنان، ج04.
17- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،ج1
18- سليمان بن عبد الله بن طاهر، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، المكتبة الشاملة الحديثة . .
19- عبد الصبور شاهين : دراسات لغوية .
20- عبد العال سالم مكرم ، القرآن الكريم و أثره في الدراسات النحوية ، دار المعارف ، مصر ، بلا تاريخ ، بلا طبعة.
21- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي ج1، دار العلم للملايين طبعة 1983.
22- مستويات التصحيح اللغوي عند القدماء دراسة في كتاب تصحيح التصحيف و تحرير التحريف لصلاح الدين الصفدي (764هـ).
23- يعقوب بكر، نصوص في فقه اللغة، . دار النهضة – بيروت 1970،ج1.